من أدب الاختلاف*

للجاحظ

«حكى الجاحظ، قال: تجاذبت يوما وإبراهيم النظام حديث الطيرة[1] ، فقال لي أخبرك ، إني جعت حتى أكلت الطين! وما صرت إلى ذلك حتى قلبت قلبي[2] ، أتذكر هل ثم رجل أصيب عنده غداء أو عشاء ؟! فما قدرت عليه ! وكان علي جبة وقميص ، فبعت القميص!

ثم قصدت الأهواز[3] ، وما أعرف بها أحدا، وماكان ذلك ناشئا إلا عن الحيرة والضجر ، فوافيت الفرضة[4] فلم أصب بها سفينة، فتطيرت من ذلك ، ثم إني رأيت سفينة في صدرها خرق وهشم، فتطيرت أيضا ، فقلت للملاح : تحملني ؟ قال : نعم، قلت : ما اسمك؟ قال: (دواداذ) وهو بالفارسية اسم الشيطان ، فتطيرت وركبت معه!

فلما قربت من الفرضة صحت: يا حمال ، ومعي لحاف سمل[5] ، ومضربة خلق[6]، وبعض ما لا بد لي منه ، فكان أول حمال أجابني أعور! فقلت لبقار كان واقفا: بكم تكري ثورك هذا إلى الخان؟ فلما أدناه مني إذا هو أعضب[7]، فازددت طيرة إلى طيرة ! وقلت في نفسي : الرجوع أسلم، ثم ذكرت حاجتي إلى أكل الطين! وقلت: من لي بالموت؟!!

فلما صرت إلى الخان وأنا حائر ما أصنع، إذ سمعت قرع باب البيت الذي أنا فيه ، فقلت : من هذا؟ فقال: رجل يريدك، فقلت : من أنا؟ فقال : إبراهيم بن سيار النظام، فقلت – في نفسي- : خناق أو هذا عدو أو رسول سلطان!

ثم إني تحاملت وفتحت له الباب، فقال: أرسلني إليك إبراهيم بن عبدالعزيز ، ويقول لك: إن كنا اختلفنا في المقالة – أي في الرأي والمذهب- فإنا نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرية[8]، وقد رأيتك حيث مررت بي علي حال كرهتها ، وينبغي أن تكون نزعت بك حاجة – أي أخرجتك من بلدك – فإن شئت فأقم بمكانك مدة شهر أوشهرين ، فعسى نبعث إليك ببعض ما يكفيك زمانا من دهرك ، وإن اشتهيت الرجوع ، فهذه ثلاثون دينارا فخذها وانصرف، وأنت أحق من عذر.

قال: فورد علي أمر أذهلني ، أما واحدة: فإني لم أكن ملكت قبل في جميع دهري ثلاثين دينارا، والثانية : أنه لم يطل مقامي وغيبتي عن أهلي ، والثالثة : ما تبين لي من الطيرة أنها باطل». انتهى.

قال عبدالفتاح : والرابعة – وقد فاتت النظام – وهي تعدل الثلاثة مجتمعة عندي أو تفوقها ، وهي : ذاك النبل النبيل ، والفهم الأصيل ، لحقوق الأخلاق والحرية والإنسانية ، فلم تمنع مخالفة النظام في المقالة والرأي والمذهب إبراهيم بن عبدالعزيز: أن يسعفه عند محنته وإملاقه، وأن يمد له يد العون والمروءة والإنقاذ.

فتباعده منه كان لله تعالى، من أجل الاختلاف في المقالة والرأي، وصلته له من أجل رعاية حقوق الإنسانية والحرية ، وهي لله تعالى أيضا، وكل ذلك من الإسلام ، فانحراف النظام في رأيه، لا يمنع من القيام بأداء حق المروءة إليه ، فما أجمل الفهم للشريعة وأحكامها ، وما أجمل تنزيلها منازلها في الرضا والغضب، والقرب والبعد، والحب والكره، مع الصديق والعدو: « لا وكس ولا شطط» . ورحمة الله تعالى على ذاك الإنسان العالم النبيل ، ما أعمق إدراكه للإسلام! ■

الهوامش:

(*) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، الشيخ عبدالفتاح أبو غدة ، ص٢١٩، والخبر في كتاب الحيوان ٣ / ٤٥١ .

(١) أي التشاؤم ببعض الأشياء أو الأشخاص أو الأزمان أو الأماكن ، هل هو صحيح له تأثير أم باطل؟

(٢) أي فكرت كثيرا، والقلب : العقل.

(٣) الأهواز : بلدة شرق شمال البصرة، تبعد عنها نحو ١٥٠ كيلومتر.

(٤)هي فرجة من النهر تركب منها السفن

(٥) أي عتيق بال.

(٦) أي بالية أيضا، والمضربة : هي غطاء كاللحاف، ذو طاقين مخيطين خياطة كثيرة ، بينهما قطن ونحوه.

(٧) الأعضب : مكسور القرن ، وكانوا يتطيرون به.

(٨) أي شرف النفس والإنسانية.